ننظر الى تاريخ الشعب اليهودي كما ننظر الى غيره من المجتمعات البشرية فقد « كان اليهود خاضعين باستمرار لعمليات انصهار وفرز دائمة في مراحل تطورهم التاريخية . عمليات فرز انتجت اليهودي التاجر الغريب المرابي ، وعمليات دمج مستمرة ايضا انتجت اليهودي المزارع والحرفي والبورجوازي الصغير والراسمالي المنسجم مع عصره وبيئته ». (دراسات .. ص ٣٤) .

اما دراسة العظم «الصهيونية كظاهرة استعمارية» فهي تعتبر تطويرا لدراسته الجيدة في كتابه « النقد الذاتي بعد الهزيمة » عن نوع العلاقة التي تربط بين الاستعمار والصهيونية . الا انه لم يتتبع هنا تاريخ تطور العلاقة بينهما في كل مراحلها ، بل اقتصر على ملاحظة نوع العلاقة التي نشأت بينهما، بعد الحرب العالمية الثانية . وهذا يعني ان المنهج التاريخي الذي يدعو اليه الكاتب كان يستخدم ، احيانا ، بطريقة استشهادية متقطعة للبرهنة على صحة المنطلقات العقلية . اي انه لم يعتمد عليه كمنهج للتحليل بصورة متماسكة .

وربما تكون طبيعة الكتاب ، المكون من مجموعة من المقالات التي لا يربط بينها نفس الرباط المتنامي الذي يميز كتابا متماسك الموضوع ، قد حالت دون اعطاء هذه المعالجة بعدها التاريخي المطلوب . ومن ناحية اخرى ، نستنتج ان **مستوى المنهج التاريخي ، الذي يتبناه الكاتب ، كان يتذبذب ، في بعض الاحيان ، بين التحليل المادي التاريخي وبين المعالجة المقلانية المجردة** . واعتقد كذلك ان تطبيق المنهج التاريخي لم يكن متماسكا وجليا في عدد من القضايا والمنطلقات الاخرى ، وعلى سبيل المثال ، ذلك التصور القائل بأن البورجوازية الصغيرة المعادية للاستعمار تسيطر على السلطة السياسية في بعض البلدان العربية ! كما انه بامكاننا أن نناقش الكاتب حول تصوره لتحرير فلسطين . ولكن يجب ان نسجل اولا باننا نوافقه على كثير من المنطلقات المبدأية الاساسية مثل : ان التحرير لا يعني رمي اليهود في البحر كما كان يروج التفكير الشوفيني القومي، وهو كذلك ليس معركة الجيوش النظامية فقط كما تدعي بعض الانظمة ، بل هو « معركة تشمل الشعب العربي بأسره وبكل طاقاته ضد قوى امبريالية عاتية » . (دراسات .. ص ٥٥) . وهذه المعركة لا تتحقق، بالتالي ، عن طريق الخطب والاماني بل عن طريق الكفاح الشعبي المسلح واستراتيجية الحرب الطويلة الامد بهدف انشاء الدولة الديموقراطية الشعبية في فلسطين .

الا اننا لا نوافق الكاتب على ان وجود مثل هذه الدولة الديموقراطية في فلسطين مرهون بتكامل النضال في مختلف اجزاء الوطن العربي ! والواقع ان الخطأ الذي انزلق اليه قد استمده أساسا من تصور الجبهة الشعبية والجبهة الديموقراطية لهذه المسألة . (وكما قلنا سابقا ان كتاب العظم يعبر عن تنامي القوى الوطنية الجديدة الصاعدة بكل ما تحمله هذه القوى من ايجابية وقصور) . ونحن، بالطبع ، نرفض مع العظم ، اقليمية الدولة الديموقراطية في فلسطين او تحولها الى كيان لا ثوري . ولكن ذلك لا يعني ، بالمقابل ، رهن وجودها بتكامل نضج النضال العربي المعادي للامبريالية في الوطن العربي ككل . يقول الكاتب : « لا يمكن تحرير فلسطين بدون القضاء على الوجود الامبريالي وتفرعاته في المنطقة .. » أو قوله : « ان الحل الثوري الجذري للمشكلة القومية لا يمكن أن يتأتى الا على نطاق الوطن العربي بأسره » ! ان النتيجة المنطقية لمثل هذا التصور هو التعجيز المطلق .. يضاف الى ذلك خطأ هذا التصور ، من الناحية التاريخية والسياسية . فنحن نعرف ، انطلاقا من المفهوم المادي التاريخي ، ان مستويات النضال تتعدد وتتفاوت من قطر الى آخر .

ان تكوين دولة ديموقراطية في فلسطين مرهون ، بالدرجة الاولى، بتنامي النضال الفلسطيني والعربي الوطني في المنطقة المحيطة باسرائيل اولا . أما في المستقبل البعيد ، فمما لا جدال فيه ، ان مثل هذه الدولة ستكون جزءا من الدولة الشعبية الممتدة على نطاق الوطن العربي . وذلك عندما يتطور النضال المتفاوت في تلك الاقطار الى المستوى الذي سبقته اليه الاقطار الاخرى .

وننتقل الان الى دراسة الكاتب « نحو فهم افضل للفكرة الصهيونية » التي يمكن اعتبارها أهم فصول الكتاب من الناحية المنهجية. فبعد ان يرفض الكاتب الاساليب العربية الشائعة في دراسة الصهيونية مثل : (١) الاسلوب الاخلاقي ـ الخطابي (٢) واسلوب « التفسيرات التآمرية » ، (٣) أسلوب التفسير الاعلامي الحقوقي (٤) والاسلوب الديني الغيبي الشائع ، الذي يؤدي الى نوع من المنطق السحري ، ينطلق لتفسير الظاهرة الصهيونية على اساس تاريخي كما نشأت